

الفصل الخامس

تعقيب

المؤثرات فى حياة الإنسان الاجتماعية

اقتصرت أبحاث هذا الكتاب على الإنسان . ذلك لأن الإنسان قدرة عظيمة على القيام بالأعمال المختلفة تظهر لنا واضحة جليلة متى قابلناها بأعمال أنواع الحيوانات الأخرى . فالإنسان وحده هو الذى يتكلم ، ويقرأ ، ويكتب ، ويعبد واجب الوجود ، وينشئ " ناطحات السحاب " ، ويقدر مراكن النجوم وأفلاكها لمستقبل يمتد مداه إلى ألوف السنين . ولأننا نقصد بهذا أن نستخف بأعمال القردة . تقوم القردة بأعمال تعتبر جليلة إذا قيست ببقية أنواع الحيوان . مثال ذلك أن الشمبانزى قد تعلم أن يدير آلة لتوزيع الطعام ؛ لقد تعلم أن يحصل على الطعام بوضع قطع معدنية مخصوصة فى الثقوب المعينة لذلك ، وأن يميز بين الأحجام المختلفة والألوان المتغيرة ، وأن يدفع كل قطعة إلى ثقبها الخاص ، وأن يدخل — عند الضرورة — قطعتين فى الثقب الواحد . فليست القدرة على التعلم حيساً على الإنسان ؛ إلا أن القردة عجزت عن تعلم اللغة ، أو تعلم الحركات المعقدة . والفرق بين قدرة الإنسان وقدرة القرد على التعلم هو من حيث الدرجة فقط ؛ ولكنه مع ذلك فرق جوهري بعيد المدى .

ولما كان قعود القرد عن القيام بكثير من الأعمال ناتجاً عن عجزه عن التكلم فلنا أن نتساءل : هل عجزه عن التكلم ناتجٌ عن أنه لا يسمع أحداً يتكلم لغةً ما ؟ وماذا يكون الحال لو أن قرداً صغيراً تربى كما يتربى طفل الإنسان ؟ والجواب على هذا جاء من مستر كيلوج وزوجته : فقد ربا قردة

صغيرة من نوع الشمبانزى مع ابنهما عندما كانت سنه عشرة أشهر ، وكانت
سنُّ القرودة سبعة أشهر ونصف الشهر ، واعتنيا بهما عناية طيبة ، وعاملاهما
معاملة متماثلة : فكانا يأكلان معاً ، وينامان معاً ، ويلعبان معاً . ولما كانت
القرودة أقوى من الطفل ، وكان نموُّها الجسمى أسرع من نموِّ جسمه ، فقد
كان من الطبيعى أن تكون أمهر منه فى الحركات ، وأنفذ منه فى الشؤون
العملية كتسلق الأشجار ، والقيام بالأعمال البهلوانية ؛ وقد بذته إلى حدٍّ
بعيد فى سرعة الحركة . وأعظم من هذا أنها تعلمت كثيراً من الحركات التى
يتعلمها الطفل المتمدّن : لقد أخذت تستعمل الملعقة على الوجه الصحيح فى
الأكل ، وشربت السوائل فى الأكواب الزجاجية ، وحذقت النط بالحبل ،
وفتح الأبواب وإقفالها . وأتقنت كلَّ هذه الحركات أكثر من الطفل ،
وكانت أنصت منه لتلقى الأوامر ، وأطوع منه فى تنفيذها . أما فيما يتعلق
بمسألة التكلم ، فقد قُبعت القرودة فى المؤخرة . لقد « أدركت » معنى كلمات
كثيرة ، وفهمت مجملًا عديدة ، وليكنها عجزت عن التكلم . غير أن الطفل ،
طبعاً ، تعلم التكلم على الوجه المألوف ١ .

يجب أن نفترض أن هذه البراعة الممتازة فى التكلم هى مطبوعة ، اختصت
الوراثة الإنسان بها . ولا يمكن أن تنشأ من حياة الجماعة فقط ؛ ذلك لأننا
نشاهد الحيوانات الدنيا تعيش جماعات كما يعيش الإنسان . ولا يصحُّ أن
تعزى إلى البيئة وحدها ، فالشمبانزى تربى فى محيط إنسانى جنباً إلى جنب مع
طفل إنسانى ، ومع ذلك فقد ظهر أن قابليته هى دون قابلية الطفل بكثير . إن
الإنسان وحده .. دون سائر الحيوانات .. قادر على تعلم اللغة ، قادر على حلِّ

John wolfe , Effectiveness of token Reward for Cham- - ١
panzees . 1936 - as quoted in A Handbook of Sociology, p.1 by
ogburn and Nimkoff W. N. and L.A. kelogg, The Ake and The child.

أصعب المسائل الرياضية ، متمكن من تصميم الطائرات وبنائها ، وله من المؤهلات ما يكفي أن يجعل منه وزيراً محسناً . على أننا نجهل بمعرفتنا الحاضرة حدود قابليته للتعلم .

وهناك أربعة عوامل تؤثر في حياة الإنسان الاجتماعية ، هي : المحيط الطبيعي ، والتراث الاجتماعي Social Heritage ، والوراثة ، والجماعة . وكل هذه العوامل تؤثر تأثيراً جليلاً في حياة الإنسان وتجاربه . ولا يمكن للباحث — إن تغاضى عن دراستها — أن يصل إلى وصف دقيق لتلك الحياة ، أو أن يتوصل إلى معرفة كنهها . ومن الغريب أن هذه العوامل المختلفة لا تؤثر منفردة ومستقلة . إنها تعمل متحدة ؛ وتقوم بينها صلات وعلاقات لا تنفصم عنهما . وتقوم الثقافة — في رأى علماء الاجتماع — على قوى الإنسان العقلية السامية . وليس للقررة تراث اجتماعي من أى نوع كان ؛ ولعلّ السبب الرئيسى في ذلك هو فقدانها للقوة العقلية الكافية . إن للجماعة أيضاً تأثيراً كبيراً في إنماء الثقافة ؛ ويستحيل علينا أن نتصور وجود تراث اجتماعي إذا كان كل فرد من الناس يعيش في عزلة عن بقية أبناء العالم . وهناك ولا شك صلة قوية بين الثقافة والجغرافيا . ونقصد بالثقافة هنا الحركات السلوكية التي يرثها الخلف عن السلف بعضهم من بعض — جيلاً بعد جيل — من طريق التعلم . ولسكى نتمكن من إدراك حقيقة حياة الإنسان الاجتماعية لا بدءاً لنا من الوقوف على الصلات القائمة بين الثقافة وعلم الأحياء ، وبين الثقافة والجماعة ؛ وبين الثقافة والجغرافيا . ويمكن إرجاع حركات الإنسان السلوكية إلى أصلين : أولاً : إلى الوراثة ؛ وثانياً إلى التعلم من الجماعة . فياً أخذ الإنسان عن الوراثة مثلاً الرضاعة ، والبلع ، وتحريك العينين وما إلى ذلك من الحركات ؛ ويتعلم من الجماعة تكلم اللغة العربية ، ولبس الطربوش ، وقيادة السيارات وما إلى ذلك . أما عمليات اكتساب هذين النوعين من الحركة فليست واحدة ، وإنما ، هي متغايرة ومختلفة . فأما

الأولى فهي عملية بيولوجية تنتقل بواسطة جراثيم الحياة في البويضات ؛
وأما الثانية فهي عملية سيكولوجية اجتماعية ، تتضمن الانتقال بواسطة
نظام الاتصال مبنى على قدرة الإنسان على التعلم .

لقد وُجد أصل الاجتماع والثقافة في أبعد العصور القديمة في عالم
الحيوان ، غير أن انعدام التكلم ، حتى بين الطبقات العليا من القرود ، يحدّد
إلى أمد بعيد السكينة المحرزة في التفهم والثقافة على السواء . والإنسان وحده
هو الذى يحرز ثقافة حقيقية . وقد أثبتت تلك الثقافة لأن ينظم شؤون
حياته .

والتنظيم هو حركة فعالة تقوم بها الجماعة لكي تنفّذ عملاً ما . فلو افترضنا
أن كرة كبيرة تحتاج في زحزحتها ونقلها من مكانها إلى قوة قواؤها أحد
عشر رجلاً ، يقاومهم في ردّهم عن هدفهم عددٌ مماثل من الرجال ، فلا شك
أن تنظيمهم إلى مهاجمين ومدافعين يُعتبر خطة اجتماعية مثلى . ذلك لأنهم
يصيدون نجاحاً أكبر مما لو تقدموا يضربون على غير هدى دون التزام أى
نوع كان من التنظيم . والواقع أننا لو افترضنا أن (س) هي كمية العمل التى يقوم
بها الفرد ، عندئذ فإن ١٠٠ شخص إذا نُظِّموا تنظيماً صحيحاً يقومون من العمل
بكمية ليست ١٠٠ س فقط . والبراهين الرياضية لا تدحض ؛ ولكن هذه
المسألة اجتماعية . فإذا مزجنا الرياضة مع الاجتماع نجد أننا نحصل من تنظيم
١٠٠ شخص على ١٠٠ س تضاعفت مرات عديدة ، لأمرة واحدة .

والسلوك المشترك المنظم هو خير من السلوك المشترك غير المنظم . فقد
يحدث أن ينال الدهماء والغوغاء غايتهم بسرعة دون أن يخضعوا لتنظيم ما ،
كما يحدث عند ما يفر الناس من بناية التهمتها النيران ؛ غير أن الربح في هذه
الحالة الفجائية ينتج عن التنبيه والتحريض على العمل وليس من انعدام التنظيم .
لأن التنظيم بقيادة رئيس وتوجيهه يُسهّل إخلاء البناية . وإن القوادى العسكريين

وزعماء الأحزاب ، ورؤساء نقابات العمال ، ووكلاء الدعاية والاعلان ،
والوف الجمعيات والجماعات ذات الغايات الخاصة ، يعترفون بما للتنظيم من
أثر محمود في إنفاذ غاياتهم .

وإن قسماً كبيراً من التنظيم الاجتماعي - وليس التنظيم كله - ناتج عن
أعمال رتبته عن عمد وتصميم . وقد وجد كثير من المنظمات دون أن
يوضع له تصميم خاص أو يجعل له غاية خاصة . إن المثال على قيام تنظيم
دقيق عن غير قصد موجود في نحو اللغات . فالنحو في أية لغة نشأ من غير
تنظيم وتصميم سابق : وكذلك نجد أن نظام الأسرة قد نشأ من غير تنظيم
سابق . إن نظام الأسرة دقيق جداً عند بعض الشعوب التي تشعر بوجوده ،
ولكنه لم يخلق حسب تصميم معين كما أوجدت هيئة الأمم المتحدة مثلاً .
لقد ميز (سَمَنَر) بين المؤسسات الاجتماعية التي جاءت نتيجة قصد
وتصميم في إيجادها ، وبين المؤسسات التي نشأت عن غير قصد وتصميم
مع الزمن . وقد دعا الأولى « موضوعاً ٢ » ، وسمى الثانية « ذاتية ٣ » .

إذا رمينا حفنة من برادة الحديد على قطعة من الورق نجد أنها لا تتخذ
شكلاً معيناً ، غير أننا إذا بدأنا فوضعنا قطعة مغناطيس على شكل حذوة
حصان تحت الورقة ، ثم ألقينا بالبرادة فوقها ، نجد البرادة تتجمع حول
طرف المغناطيس الخفي . وإن الأمر على مثل هذا الوضع مع أفراد الجماعة . إنهم
يتجمعون في بيت ، حول مائدة في المساكن المعدة للنوم ، أو بالقرب من
آجام الصيد وبرك الأسماك . وإن عمليات النوم ، وجمع الأطعمة ، وصنع
الآلات والأدوات ، والاتجار لا تتم لمرة واحدة فقط ، وإنما هي تتكرر

وتتجدد دائماً ، وفي خلال التكرار تنتخب أحسن الطرق لاتمامها . ويضم الأفراد الذين يشتركون في تلك العمليات التنظيم الناشئة من التكرار المستمر . وكما أن المغناطيس يحتم على البرادة أن تتخذ لها شكلاً معيناً ، كذلك نجد أن الرغبات الإنسانية العامة تحتم على الحركات البشرية أن تنتظم في سلوك اجتماعي خاص . تنشأ المنظمات الاجتماعية لكي تسد حاجة اجتماعية معينة .

على اننا لا ندعو كل حركة إنسانية منظمة اجتماعية . فالكثير من تلك الحركات هو من عادات الجماعة . إن العادات التي هي من قبيل أصول التحية وتناول الطعام مثلاً ليست في الواقع سوى أمور تتعلق بأصول معيشة الشعب . ولكن عادات الجماعة الموجودة في كثير من الثقافات خلال أزمان طويلة قد اصطلاح على تسميتها « المنظمات الاجتماعية » . من الأمثلة على ذلك البابوية ، والأسرة ، والدولة . وهذه المنظمات قد وجدت لتسد حاجات معينة لبنى الإنسان كإقرار الأمن بين الناس ، وإيجاد الماء كل والمأوى ، وتنظيم العلاقات الجنسية ، وتهذيب النشء .

الآن فلنتصور ماذا تكون عليه الحال بعد خمسين سنة . ستصبح التجارة غير ما هي عليه في الحاضر . وسيصيب التغيير الحكومات . وقد يتغير الدين في بعض البلدان ، كما سيتغير نظام الأسرة . لقد رأينا في الفصل الخاص بأصول الحكم أن التغيير يصيب المؤسسات والمنظمات اليوم ، كما أصابها في الماضي ، ولكن اليوم أسرع مما كان . ولكي نتصور ماذا تكون عليه الحال حينذاك علينا أن نبحث في طبيعة « التطور الاجتماعي » .

ولما كان العالم اللامادي Super organie يتغير بسرعة زائدة فعلى اننا نبحث في أسباب تغيره ، وما هي وجوه التغير فيه . إننا نعرف جيداً مما سمعناه عن حياة سكان الربع الخالي في جزيرة العرب أنهم لم يتغيروا في حياتهم خلال الخمسة سنة الأخيرة على الأقل . أما في بقية البلاد العربية مثلاً

فقد وقعت خلال هذه المدة تغيرات عظيمة . لماذا وقعت تغيرات كبيرة في
انكلترا مثلاً ، ولم تقع في الربع الخالي ؟

سنحاول فيما يلي أن نتلمس الجواب لهذا السؤال مما كشفت عنه الأبحاث
الاجتماعية النقاب من العوامل . وسنبين العوامل التي تساعد على نمو
الثقافة واتساعها والأساليب التي تنمو بها . وهناك عوامل تساعد على التغير
الاجتماعي وعوامل تعوقه . وسوف نبحث في معوقات هذا التغير . عندما
تقع التغيرات فإن قيمتها تظهر في تأثيرها على الحياة الاجتماعية . وجلى أن
التغير في فرع من الثقافة ينتج تغيراً في فرع آخر من فروعها ؛ ولكن
طرق التغير تحتاج إلى بحث مسهب يتناول أثر الاختراع في الحياة
الاجتماعية .

إن توجيه التغيرات هو أمر جليل . والتغير ضرورة ملحة ، ولكنه
ليس مفيداً دائماً . هنالك قوى عاملة في كل مجتمع دأبها هدم المنظمات القائمة
وتعطيل أعمالها وإنتاج ما يسمى «المشكلات الاجتماعية» . وإن تعطيل النظام
الاقتصادي مثلاً ينتج إيجاد العمال البطالين ، والبطس الاقتصادي . سوف
نبحث في هذه العوامل المؤدية إلى «التفكك الاجتماعي» . وسنبحث في
العوامل التي تقاوم هذا التفكك . نجد في المجتمع الحديث كثيراً من الناس
همهم لا أن يخففوا من حدة المشكلة فقط ، بل أن يبرهنوا على صحة قيامها
أيضاً . ومن هنا تنشأ فكرة «التقدم الاجتماعي» . إن المسألة التي تدور
حول قدرة الانسان على بناء عالم أحسن من الذي نعيش فيه هي مسألة
هامية . وهذه المسألة تستدعي البحث في «تكييف الإنسان للثقافة» .

والآن فلنبدأ البحث في مسألتين هامتين : العمليات التي يتم بها تجمع
الثقافة ، وسرعة نموها . إذا صعدت إلى رأس منارة الاسكندرية مثلاً
وتلفت حولك ثم صوّبت نظرك في المدينة التي أمامك ترى عمارات ،

وترامات ، وسيارات ، وسفننا ، وسككنا حديدية ، وخطوط تليفون ، وجسوراً ، ومخازن ، ومساجد ، وكنائس ، ومدارس ، ومصانع ، وسينات ودوراً ومنازل . فاذا كنت باحثاً وسألت : كيف وجدت كل هذه الأشياء ؟ لعلّ الجواب يكون : لقد خلقتها خلايا الدماغ الرابضة في المادة الشهباء التي تملأ جمجمة هذا الإنسان المحتال الفخور . هذا جواب خادع ! إن هذه الأشياء لم تخلق جميعها دفعة واحدة . قد تكون أرض المدينة بلقياً قبل مئتين من السنين . غير أن إيجاد الأشياء التي رأيتها قد استغرق ما لا يقل عن نصف مليون سنة . إن الإنشاءات التي تخلص بها المدينة تركّز على اختراعات اكتشفت قبل آلاف السنين مثل اللولب (البرغى) والنخل اللذين استعملوا في العصر الجليدي أو قبله .

وإن انقضاء هذه المدة في النمو يعني أن الثقافة تتجمع . وإن المدينة الممتدة بجوار المنارة قد وجدت لأن الثقافة تتجمع ؛ إن صانعي الأدوات الأقدمين الذين كانوا يصنعون أدواتهم من الحجارة بقطعها ، حسنتوا أساليب صناعتهم باستخدام المتفجرات . وقد أدخلت مع طول الزمن تحسينات أخرى على تلك الأساليب . فعرف النقّار والجُرّش والسنّ والحفر في تلك الصناعة . ثم استعملت العظام في صنع الأدوات ؛ واستعملت القرون واستخدم العاج أيضاً . وعقب ذلك عهد المعادن التي توجد خالصة من التراب كالنحاس والذهب . وجاء في الأزمان المتأخرة دور تنقية الحديد وغيره من المعادن من التراب . هكذا تجمعت الثقافة .

ولعلّ الآيات التالية تبين أصول تجمّع الثقافة :

قطرات المياه منها محيط وصغار الحصى تكون أرضاً
ودقيقتاننا تؤلف جيلاً بعد جيل في إثره يتقضى

تتجمع الثقافة عند ما يزيد عدد العناصر الجديدة في أى مدة من الزمن على عدد العناصر التى يهجرها المجتمع لأنها أصبحت غير صالحة للعصر . والعناصر التى تُضم إلى مجموعة الثقافة فى أى إقليم أو ناحية تأتى من مصدرين : فإما أن تُخترع ؛ وإما أن تُستورد من إقليم آخر . إن جزءاً ضئيلاً من التراث الاجتماعى فى أى إقليم نشأ محلياً فى ذلك الإقليم . فالتراث الاجتماعى ينمو ويتسع فى إقليم معين عن طريق الإذاعة . ومعنى « الإذاعة » نقل مواد الثقافة من بقعة إلى بقعة ، ونقل تلك الموارد من قسم فى ثقافة معينة إلى قسم آخر منها . وتنمو الثقافة فى أقاليم صغيرة محلية . لسنا نجد ثقافة واحدة للأرض كلها . نجد ثقافة ألمانية وثقافة فرنسية مثلاً . إن أمنية المصلحين أن يسود العالم يوماً ما ثقافة واحدة . وليست مناطق الثقافات منعزلة بعضها عن البعض تماماً . إنها متجاورة متصلة . ينتج عن ذلك أن الاختراعات التى تنشأ فى منطقة تنتقل إلى المناطق الأخرى . ويكاد يعم استعمال السيارات مثلاً العالم كله . بعض المناطق تستوردها والبعض الآخر يصنعها . لم تخترع السيارة فى كل تلك المناطق . فقد اخترعت فى ألمانيا وانتشرت منها فى جميع أنحاء العالم ودخلت أمريكا فى سنة ١٨٩٣ .

يدخل فى كل اختراع جديد تتضمنه ثقافة ما ، عناصر قديمة إن هنالك استمراراً فى الثقافة . وكل اختراع جديد يرتكز على الاختراعات القديمة التى سبقته ، فلا يمكن إنتاجه إلا إذا أوجدت عناصر تلك الاختراعات . ويستفيد المخترع الحديث من اختراعات أسلافه . لقد برهنت الوقائع التاريخية على صحة النظرية القائلة : ينتج عن ازدياد تجمع الاختراعات ازدياد سرعة التغير الثقافى . ولا يعتبر من الحكمة أن نقول إن العالم بنته اليوم جميع حاجات الإنسان المادية وأنه لذلك لم يبق مجال جديد للاختراع والواقع أن ثمة حاجة لاختراعات كثيرة ، وقد عدّد أحد المؤلفين ألفاً

وخمسةائة اختراع ما تزال الحاجة ماسة إليها . وما دامت هنالك اختراعات جديدة فهناك تغير سريع يصيب الثقافة .

والآن ما هي العوامل التي تعوق التطور الثقافي ؟ هنالك عاملان مهمان يهملان على إعاقة نمو الثقافة : يبطيء التغير الاجتماعي في حدوثه إذا قل ظهور الاختراعات ، وإذا أعرض المجتمع عن قبول الاختراعات بعد ظهورها إلى حين الوجود .

ما يزال سكان الربع الخالي اليوم يلبسون على رموسهم الكوفية والعقال كما كان يفعل أسلافهم منذ مئات السنين . وما يزالون يسكنون في بيوت يقيمونها من الشعر . لماذا ظلت ثقافة هؤلاء الناس ثابتة لم تصبها يد التغير بشيء خلال هذه الأحقاب من الزمن ؟ الجواب : إن ذلك ناتج عن انعدام الاختراعات بينهم . والواقع أن عدداً ضئيلاً فقط من الاختراعات يظهر في المناطق الصغيرة . ثم إن هذه البقعة كانت منعزلة عن العالم فلم تصلها مخترعاته ، ولا مجال لوصولها إليها نظراً لأن السكان لا يستطيعون دفع أثمانها لفقرهم المدقع .

وعلى ذلك فإن انعدام الاختراعات هو من أسباب إعاقة التغير الاجتماعي في مجتمع ما . إن وجود الاختراع دليل على وقوع التغير ، وإذا كان عدد الاختراعات قليلاً ، كان عدد التغيرات قليلاً أيضاً . ولنا أن نتساءل الآن : لماذا يقل عدد الاختراعات ؟

الاختراع صعب . لم يتمكن العلماء حتى الآن من اكتشاف علاج للسرطان . لقد احتيج إلى انقضاء زمن طويل قبل أن أصبح السفر في الطائرات مأمونا . وانقضت مئات من السنين إلى أن صارت الآلات

البخارية على ما هي عليه الآن . كل هذا ينقض دليلاً على أن من الصعب إنتاج الاختراعات ، ومن الصعب جداً إنتاجها إذا كانت معقدة . وعندما حلل الباحثون الصعوبات التي تكتشف إنتاج الاختراع وجدوا أن كل اختراع يستند إلى ثلاثة عوامل :

أولاً : وجود العناصر والمواد الضرورية للاختراع الجديد . ذلك لأن الاختراع هو مادة جديدة تتألف من عناصر لا مندوحة عن وجودها قبل إيجاد الاختراع الجديد . إن وجود الاختراعات والمواد التي يتألف منها الاختراع الجديد هو عامل في وجوده . ثانياً : لابتداء من وجود الطلب للاختراع ، ونعني بالطلب الضرورة . ومن هنا نشأ القول المأثور « الحاجة أم الاختراع » . ثالثاً : المقدرة العقلية على الاختراع . وقد تكون هذه المقدرة موروثية ، وقد تكون مكتسبة . ولكنها موجودة على أي حال بنسبة معقولة بين السكان . أما أديسون فكان يقول : إن الاختراع لا يحتاج إلى عبقرية بقدر ما يحتاج إلى عمل شاق متواصل . ولسنا نعلم هل كان جاداً في هذا القول . وقد اكتشفت بعض الاختراعات في القديم عرضاً مثال ذلك أن النار اكتشفت من حك حجرين أحدهما بالآخر .

إن انعدام المعرفة التامة تحول دون إنتاج اختراعات تصلح من أول الأمر للغرض الذي اخترعت من أجله . لذلك نجد الناس يتذمرون من بعض الاختراعات الجديدة تدمراً يعوق نجاحها . وقد تطرح بعض الاختراعات في السوق ولكن الناس يرفضونها . ويتسبب ذلك عن أن تلك الاختراعات إذا نجحت تؤثر في أقسام أخرى من الثقافة . وكلما زاد تماسك أجزاء الثقافة الواحدة ، زادت مقاومة الناس للاختراعات الجديدة . وقد تظهر إلى حيز الوجود مقاومة اختراع جديد إذا كان الناس يستعملون اختراعاً قديماً آخر يقضى حاجاتهم حتى لو كان الاختراع الجديد أحسن

وأفضل منه . إن العناصر القديمة — على هذا — تستأثر في الوضع وتشفع به وتلك ظاهرة تسمى « قوة الاستمرار الثقافي » .

يظهر أن مقاومة التغير هي — من الوجهة النفسيةولوجية الاجتماعية — من قبيل خلق عادات جديدة . يألف الناس عمل الأشياء على وجهه معين زمنياً طويلاً ، فيصعب عليهم تغيير ما ألفوه . وكلما طال أمد التعامل على وجه معين ، زادت الصعوبة في تغييره ، ولذلك نجد الشيوخ يقاومون كل تغيير يصيب طراز حياتهم الذي ألفوه . هذا هو الخوف من كل جديد ، والتعلق بأهداب الحالة الراهنة ، وإبقاء ما كان على ما كان . ولعل أشد الناس في مقاومة الجديد الجماعة التي لها حقوق مكتسبة ، لها امتيازات تدر عليها أرباحاً لو بقي ما كان على ما كان .

ولعل من المناسب هنا أن نبحث في أثر الاختراع في الحياة الاجتماعية . قد لا يقتصر الاختراع المهم على التأثير في حالة اجتماعية واحدة . يؤثر بعض الأحيان في حالات كثيرة فيمتد عمله إليها في نواح مختلفة . مثال ذلك اختراع الراديو . أثر في التسلية ، وفي التعليم ، وفي السياسة ، وفي صناعة النقل ، وفي نواح أخرى كثيرة . وقد عدت لجنة أمريكية عينت خصيصاً لهذا البحث مائة وخمسين مسألة في الحياة الاجتماعية أثر فيها الراديو .

لقد بحثنا في الاختراعات المادية . إن هنالك « اختراعات اجتماعية » : وهي تشمل كل اختراع ليس ميكانيكياً ، وكل اختراع ليس اكتشافاً في العلوم الطبيعية . وهو في الواقع « اختراع الجماعة » . مثال ذلك كل الاختراعات في الثقافة غير المادية كالاسبرنتو ، وتأشيرة المرور على جوازات السفر ، وامتحانات الذكاء ، وإصلاحات الأحداث ، والخيمات الصيفية وما إلى ذلك .

تحدث الاختراعات الاجتماعية تغييراً اجتماعياً أيضاً . وهذا التغيير هو الذى ترمى إليه التشريعات الاجتماعية . إن ضريبة الدخل أو الإيرادات التصاعدية مثلاً ، لها أثر اجتماعى مهم : ذلك هو إعادة توزيع الثروة . وإذا كانت الضريبة تصاعدية حادة وأيدتها التشريعات الاجتماعية ، فأنعمت بالفوائد على الطبقات الفقيرة بشكل التأمين الاجتماعى ، فإن النتيجة هى أن تأخذ المال من الغنى وتعطيه للفقير . وعلى ذلك فإننا نلاحظ هنا أن اختراعين اجتماعيين أو أكثر تعاونت فيما بينها على بلوغ غاية واحدة هى إعادة توزيع الثروة . وكذلك نجد اختراعين اجتماعيين آخرين هما قوانين تشغيل الأحداث والتعليم الإلزامى ، قد غيرت فى حياة الأسرة ، فحدثت من سلطان الوالدين على أولادهم .

ولما كان كل تغيير اجتماعى يقع بوساطة الأفكار ، يجدر بنا أن نتساءل : من أين تفيض الأفكار ، وما هو مدى تأثيرها ؟ ولكى نجيب على هذا السؤال نقول : إن هنالك نوعين مختلفين من الأفكار ، هنالك الأفكار التى تدور حول الحقائق والأشياء المادية ، وهنالك الأفكار التى تدور حول الخيال . وقد تنشأ الأفكار الخيالية من مطامح الإنسان ومطامحه وآماله ، أو من الخوف ، أو من العواطف الأخرى ، وتسمى تلك الأفكار « المعتقدات » . من هذا القبيل العقيدة بأن يوم القيامة يقع بعد مرور ألف سنة على أيام السيد المسيح عليه السلام . ومن ناحية ثانية قد تنشأ الأفكار من ملاحظة الظواهرات المختلفة . مثال ذلك المعرفة الناشئة عن مراقبتنا لكيفية إدارة دفة سفينة بحرية . ثم إن ثمة أفكاراً هى مزيج من الضربين السابقين . والواقع أن الأفكار الواقعية والأفكار الخيالية هما طرفا مقياس الأفكار وفى المسافة التى بينهما تأخذ الأفكار المتنوعة منازلها . ولعل

من أمثلة الأفكار التي هي بين الحقيقة والخيال الفكرة الرئيسية في نظرية « حرية التعامل » Laissez - Faire المتعلقة بأعمال الدولة ، فكثير من الناس يعتقدون أن أحسن الحكومات هي أقلها تحكماً وتدخلًا في شؤون الحياة . إن القوى الاقتصادية توازن نفسها عند تفاعلها لتزويدنا بما نحتاج اليه من الأشياء . وعلى ذلك فإن هذه الفلسفة - عند هؤلاء الناس - هي تفكير مقصود . وفي الوقت عينه هنالك حكومات كثيرة قد نجحت في سياستها عندما اتبعت سياسة معادلة بالنسبة لنظرية « حرية التعامل » . وهكذا نشأت بعض الأفكار من التفكير المقصود ، وبعضها من الملاحظة والمراقبة . أما تأثير الأفكار - مهما يكن منشؤها - فإن العالم المادي يتأثر بالأفكار الواقعية وبالأفكار الناشئة عن الملاحظة والمراقبة ، أكثر مما يتأثر بالمعتقدات . وإن الثقافة المادية لا تلين بسهولة أمام الأفكار الخيالية . مثال ذلك أن الإنسان في هذا العالم الذي تهيم عليه أسباب المدنية الحديثة ، كثيراً ما يحلم ويتمنى أن يعيش عيشة أجداده القدماء البسيطة . ولكن هذا الحلم يعسر تحقيقه في زمن الساعات الحديثة والمنافسة التجارية .

على أن المثل العليا الناشئة عن الأفكار الخيالية تؤثر في الثقافة المادية . وإن الأفكار المقصودة في العظمة القومية تحمل أمة صغيرة أن تخصص أكثر من نصف ميزانيتها للبراج العسكرية . إن فكرة العرق التي اعتنقها الاشتراكيون الوطنيون في ألمانيا لا تستند إلى أساس صحيح في علم الإنسان أو علم الأحياء ، ومع ذلك فقد لعبت دوراً كبيراً في بناء اقتصاد مستقل لألمانيا زودها بحاجاتها المادية .

والواقع أن للخيال نصيباً من التأثير على العالم المادي ، كما أن للحقيقة تأثيراً عليه ، ولكن تأثير الحقيقة فيه أبلغ . إن لادعاءات دعاة الإعلان - إذا أخذوا الأجر الذي يطلبونه - أنهم يستطيعون أن يجعلوا الناس

يعتقدون بصحة أى شىء يلقونه عليهم ، نصيباً كبيراً من الصحة . وإن أصل الفلسفة الاجتماعية كالفردية والاشتراكية والديموقراطية يدل على أنها مزيج من الأفكار الحقيقية والخيالية . وإن المدن الفاضلة التى خصصنا هذا الكتاب لها هى مزيج من الأفكار الحقيقية والأفكار الخيالية أيضاً . والواقع أن التطور الاجتماعى يحدث بوساطة الأفكار ، وأن الثقافة المادية أكثر ما تتأثر من الأفكار الواقعية . وتأثر تلك الثقافة أيضاً — ولكن إلى حد أقل — بالتراث الاجتماعى ، كالفن والدين والفلسفة الاجتماعية .

وأبرز ما يكون تأثير الثقافة المادية هو فى المنظمات الاجتماعية . إن الصناعة الحديثة هى مخلوق أوجده اختراعات توليد القوى ، والممكنات التى تدار بتلك القوى المصنوعة من المعادن . إن بعض النتائج أثرت تأثيراً كبيراً فى التطورات الاقتصادية التى أثرت هى بدورها على حياة الأسرة . وكادت بعض التأثيرات تكون روائية ، كما هى الحال فى تأثير الإجهاض على نسبة المواليد وعلى الأخلاق . أما الدين فلم يأت كثيراً بالتطورات المادية ، ذلك لأن موضوعه هو غير القيم المادية ، ومع ذلك فإن العقائد لم تنج من أن يصيبها ظل من أثر الاكتشافات العلمية . ولعل الدولة هى أشد المؤسسات تأثراً بتغير الأدوات والمعدات ، وقد تأثرت أساليبها كثيراً باحتياج اختراعات الأسلحة والمعدات الأخرى ، وتأثرت باختراعات المواصلات والنقل . وهذه الاختراعات عملت على توسيع منطقة حكم الدولة كما عملت على توسيع مدى اختصاص وظائفها .

وعلىنا الآن أن نبحث فى التفكك الاجتماعى : ينتج التفكك الاجتماعى من التغير السريع الشامل . وقد يكون ذلك التغير عفيفاً وسريعاً كما فى حالة الحرب والفيضان ، وقد يكون لينساً بطيئاً كما يؤثر كساد حالة التجارة فى سوق الأموال غير المنقولة ، وكما تتأثر تجارة البلاد المحايدة من

وقوع الحرب في البلاد المجاورة لها . ويحدث التفكك عادة من تألف القوى التي تحدث التغير الاجتماعي . والآن ما هي العوامل الأساسية التي تحدث التفكك الاجتماعي ؟ أحد تلك العوامل ضياع التوازن بين الإنسان وثقافته وبين المحيط الطبيعي الذي يعيش فيه . والامثلة على ذلك كثيرة . فقد ينتج انتشار الأوبئة إبادة سكان بلدة أو منطقة بكاملها . يقال إن الوباء الأسود عند ما اجتاحت انكلترا في سنة ١٧٤٨ أهلك ثلث السكان أو نصفهم في مدة تقل عن السنة الواحدة ، وأن السكوليرا قضت على جميع سكان مدينة زعر (التي كانت إلى جنوب البحر الميت على مقربة من العقبة) وكانوا حوالى أربعين ألفاً في القرن السابع للهجرة . ويفكك الحياة الاجتماعية أيضاً الزلازل والبراكين والفيضانات وغيرها من المصائب التي ينزلها غضب الطبيعة بالجنس البشري . ويتوقف مدى التفكك الاجتماعي على أهلية الثقافة الموجودة لأن تتلاءم مع هذه الظواهر الطبيعية . لقد تسليحنا اليوم بمعرفة تمكننا من منع حدوث الأوبئة ووقف سريانها ، ومن بناء بيوت من الحديد - كما في سان فرانسيسكو - لا تؤثر فيها الزلازل، ومن إقامة السدود لمنع الفيضانات . إن قوة العوامل الجغرافية في إحداث التفكك الاجتماعي تتوقف إذن على حال الثقافة المحلية . كان أثر هذه العوامل شديداً في المجتمعات الجاهلة وفي الأزمنة القديمة . وقد قطعت وسائل النقل الحديثة داء الجوع من كثير من البلدان . إلا أن العوامل الجغرافية كالأعاصير والفيضانات والقحط مازال ذات أثر فعال في المشكلات الاجتماعية .

ومن العوامل التي تحدث التفكك الاجتماعي فقدان التوازن بين طبيعة الإنسان الموروثة وبين مقتضيات حياة الجماعة وثقافتها . إن طبيعة الإنسان تتغير بوساطة جرثومة الحياة ببطء متناهٍ بينما تتغير الثقافة بسرعة . تتطلب حياة الجماعة التعاون بين الأفراد ، ورعاية حقوق الآخرين ، غير أن نزعة

الإنسان الى التعدى ، وحب التملك ، لم تخضع بعد لمقتضيات حياة الجماعة .
قد يسرق الإنسان أو يرتكب جريمة القتل فيحدث بعمله تفككاً ، وقد
يسبب رجل مشاكس وقعاً مقداراً كبيراً من التفكك أيضاً .

أما العامل الرئيسى الثالث الذى يحدث التفكك الاجتماعى فهو التباعد
الذى يحدث بين أجزاء الثقافة الواحدة المتألفة عند ما يتغير كل جزء منها
على حدة بنسب متغيرة وسرعة غير متساوية . مثال ذلك : إن مشكلة
البطالة ناشئة من الاختلاف فى درجات التغير . تسلب الاختراعات
الجديدة من العمال وظائفهم قبل أن توجد لهم أعمالاً أخرى . وقد تسبب
البطالة عن الكساد التجارى عندما يتحرك الإنتاج بسرعة تزيد عن السرعة
التي تتحرك بها القوة الشرائية عند المستهلك . فالبطالة إذن تمثل - فى هذه
الحال - التغير فى الأحوال التجارية الذى يخب فى مجيئه فيسبق التغير الذى
يصيب السكان .

يعتور حياة الإنسان الحديثة كثير من التبلبل والاضطراب . عند ما
تكون التغيرات عنيفة وكبيرة - كما هى اليوم - فتستولى الحيرة على الناس
وتأخذهم الدهشة . هل تسير حياة المجتمع وفقاً لخطة رسمتها يد الله العلى
العظيم ؟ لا شك أن قدرة الله جل وعلا تؤثر فى حياة الإنسان . لقد ذكرنا
قبلاً أن الوراثة ، والثقافة ، والجماعة ما تزال تعمل على مقاومة المحيط الطبيعى
البطىء التغير ، وفى عملها تؤثر فى شخصية الإنسان . وخبرته وتوجه سير
المدينة فى المستقبل . ولكن هل ثمة وجهة خالصة تصير المدينة إليها ؟ إن
محاولة الإجابة على هذا السؤال تستدعى البحث فى فكرة «الارتقاء Progress»

ارتقى الإنسان إلى حالته السامية من حالات دنيا . ويعتقد الكثيرون
منا أن الارتقاء ضرورة لا بد من حصولها . ولكن هذا الاعتقاد خاضع
للشك فى صحته . إن الزمن اليوم أغنى مما كانت عليه قبل قرن من الزمن مثلاً .

ولسكن هل جمع الثروة يعتبر ارتقاءً . ندور حول العالم اليوم في مدة وجيزة إذا قيدت بالزمن الذي كان يقتضيه هذا الأمر في السابق ، والسكن هل يجلب هذا التغير السعادة والطمأنينة والراحة إلى نفوسنا ؟ عندما يزور بعض الشرقيين أمريكا مثلاً تدهشهم المدنية المادية الحديثة ، والسكنهم - في الوقت عينه - يتساءلون : هل يمثل ما شاهدوه ولمسوه ارتقاءً في الحياة ؟

ينتج عن هذا البحث استحسان التمييز بين « التطور » و « الارتقاء » . التطور هو التغير في اتجاه معين . عندما نتحدث عن التطور البيولوجي نعني توالد بعض الكائنات الحية من كائنات حية أخرى . أما في التطور الثقافي فإن لكل اختراع جديد تاريخاً خاصاً به ، أي إنه ينشأ من اختراعات قديمة معينة ويستند إليها . يصف التطور سلسلة من التغيرات وقعت في نظام خاص وهو يشير إلى حالة خارجية لا تُقدَّر بأنها حسنة أو سيئة . أما الارتقاء فانه يعني التغير من الأدنى إلى الخير ، ولذلك فهو يتضمن حكماً بالتقدير الحسن أو حكماً بالتقدير السيئ .

وليس في وسعنا البحث في الارتقاء دون الاستعانة بمقياس أو معيار نقبين به الدرجة والمستوى . والمقياس ذاتي نسبي . إن القيمة - كالذوق - لا تخضع لمقياس *De gustibus non disputandum est* وقديماً قيل « لا جدال في الذوق » . قد يعتبر شخص ما ، تغيراً معيناً في الثقافة ، ارتقاءً . وقد يعتبر شخص آخر ذلك التغير بعينه تدهوراً اجتماعياً : ذلك لأن لكل منهما اعتبارات مختلفة سار على هديها .

لقد ارتقى العالم من الوجهة المادية . يستعمل الناس المواد والآلات الفولاذية والمحركات البخارية مثلاً بدلاً من الأدوات الحجرية التي استعملها إنسان العصر الحجري . بيد أن هذا التقدم لا يعتبر ارتقاءً روحياً ، وإنما هو وصف للأمر الواقع ، وهو أن الآلات والأدوات تعددت

وتباينت وزادت صلاحيتها لشؤون الحياة المادية . إننا نجزم بأن هنالك ارتقاءً أصاب صناعة الآلات لأن لدينا مقياساً نصدر حكمنا بالاستناد إليه : ذلك لأننا نقيس صلاحية أدوات العصر الحجري والعصر الحاضر لقطع الحجارة بالنسبة الى النتيجة . ليس هناك شيء فكري نعمل على استنباطه في هذه الحال . أما لو كان غرضنا أن نقدر مدى تأثير استعمال الآلات على المجتمع بالنسبة لأمر معين كالسمادة مثلاً ، فإن الأمر يختلف ولا يستطيع الوصول فيه إلى نتيجة قاطعة . إننا لا نجد قيمة واحدة متمثلة لجميع الأشياء في كل الثقافات وفي جميع الأوقات . مثال ذلك أنه بالرغم من أن السرقة محرمة في جميع الأديان ، إلا أن العبيد اعتادوا أن يسرقوا من أسيادهم ، واعتادوا أن لا يعتبروا السرقة على هذا النحو محرمة .

يعنى « الارتقاء » التقدم في إمرار العيش الرغيد بوجه عام . وقد أنكر بعض علماء الاجتماع وجود ارتقاء ما في حياة الانسان . قال (دووب Doob) في كتاب له أصدره سنة ١٩٤٠ : « وهكذا فإن علماء الانتروپولوجيا قد حاولوا أن يزيلوا فكرة الارتقاء من نظامهم . فهم يقرّون بوقوع تغير فحسب ، أو لعلمهم يقرون بنزعة تنبج بالحياة نحو زيادة التشويش والاضطراب . وليس التغير أو التشويش والاضطراب بحسن أو سيء ، هنالك تفاوت في الدرجة فقط وليس في النوع أو الفاعلية والتأثير ... إن اتجاه الارتقاء التاريخي لا يبرز لنا ارتقاء ما . أما (هيلدين Haldane) فقد كتب في سنة ١٩٣٢ مايلي : « لقد استعملت كلمة (ارتقاء) وكلمة (تقدم) وكلمة (انحطاط)^٣ على الوجه الذي يليق بمن يطرق أبحاثاً

١ — The Plans of Men, by L. W. Doob.

٢ — T. B. Holdane, The Causes of Evolution, 1932, p 153

٣ — ارتقاء Progress ، تقدم Advance ، انحطاط Degeneration

كأبحاثنا هذه أن يستعملها ليعبر بها عن أفكار معينة ؛ غير أنني أعلم علم اليقين أن هذه الاصطلاحات لا تمثل إلا نزعة الاختيال والفخر الملازمة للإنسان . . . إن إنسان اليوم هو - على الأرجح - أحد المخلوقات العاقلة التي ما تزال بدائية وناقصة . . . وإنه حيوان أسوأ حظاً من القرد . . . علينا أن نذكر - عند حديثنا عن الارتقاء - في التطور ، أننا ننسحب نسبياً من ميدان المادية العلى إلى أرض القيم الإنسانية السبخة ، . وقد خطأ جوليان هكسلي هذا الرأي . قال في كتابه الصادر في سنة ١٩٤٨ ما يلي ١ : « إنني أنكر على هيلدن هذا الرأي . لقد أهمل ملاحظة أن الإنسان يتحكم بالطبيعة ويعيش مستقلاً عن محيطه أكثر من أى قرد . إن الإنسان آخر الأنواع الحاكمة التي تتطور . لذلك فإن لنا مبررات كثيرة إذا ما دعونا النزعات المؤدية إلى تقدّمه ارتقاءً . إن القيم الإنسانية ضرورية لإحراز أى ارتقاء في المستقبل ؛ ولكن القيم البيولوجية كانت تعمل عملها قبل أن يظهر الإنسان إلى الوجود » .

والآن فلنبحث في المسألة التي كثير أ ما تخطر على بال كل إنسان رزق نعمة التفكير : ما هي غاية الإنسان في حياته ؟ إننا نجد كثيراً من الشعراء والفلاسفة وعلماء الدين وغيرهم من بني الإنسان يحاولون أن يجدوا هدفاً غريباً لحياة الإنسان . بعضهم يجد غاية الحياة الإنسانية واضحة في الكتب السماوية التي أوحاها الله جل وعلا إلى رسله ؛ وبعضهم يحاول أن يستنبطها من الظواهر الطبيعية ، ومن الآيات الطبيعية التي يستندون إليها في بيان غاية الحياة ، حياة النشوء والارتقاء . إن تاريخ الحياة ، على ما يعتقدون ، يؤكد وجود قوة عظيمة وجهت الإنسان في حياته في الماضي ، وهي مسيطرة على مقدراته في المستقبل . وهذه القوة هي واجب الوجود تبارك وتعالى .

لقد أشار جلال الدين الرومي إلى حديثين شريفيين في ظاهرهما تناقض كبير : الأول ، الرضا بالكفر كفر ، والآخر من لم يرض بقضائي فليطلب رباً سواي . وقال شارح ديوانه ما نصه : من المعلوم أن جميع أفعال العباد مندرجة تحت مشيئة الله وقضائه . والرضا بالقضاء واجب لما علمت من الحديث القدسي : من لم يرض بقضائي فليطلب رباً سواي . والحال أن الرضا بالكفر كفر : فإن رضى عبداً بالكفر الذي هو قضاء الله تعالى كفر وإن لم يرض به فهو تارك للواجب ، . وقد جعل الله تعالى الغاية من حياة الناس عبادته ، وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون ، أى إلا ليكونوا عباداً لى ، ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون . لقد أعدت مشاعرهم لأن تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار وتجتهد في جذبها ودفعها غاية جهدها ، وهم ليسوا كذلك ، بل أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم إلى النار

هذا من بعض التعليقات في غاية حياة الانسان . على أننى أعتقد أن هذه هى الأسباب التقديرية ؛ وهنالك إلى جانب تلك الأسباب ، الغايات المستندة إلى عناصر التطور : من التكيف للمحيط ، أو الاختصاص ، الى الارتقاء البيولوجى ، هى غايات ظاهرية فقط . وهى من إنتاج قوى عمياء ، كما أن سقوط حجر من مكان سحيق وحركة المد والجزر فى الأمواج هى

-
- ١ - توفيق ميان : اين دو حديث كه الرضا بالكفر كفر
وحديث ديكر كه من لم يرض بقضائي فليطلب رباً سواي
ص ١٩٨ من الجزء الثالث من شرح المتنوى تأليف الشيخ يوسف ابن
أحمد المولى طبعة سنة ١٢٢٣ هـ

من إنتاج قوى طبيعية عمياء . إننا نحن الذين أوجدنا غاية للحياة نتلهمسها في الدين وفي التطور كما اعتبر الانسان القديم أن لقوى الطبيعة (كالأعاصير والزلازل) عواطف وشهوات وإرادة . وإذا أردنا أن نضع غاية نتوخاها للإنسان المستقبل علينا أن نضع هذه الغاية بأنفسنا . إن الغايات توضع في الحياة ولا تكتشف . واهل ما كتبه العلامة الاستاذ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه (مناهل العرفان في علوم القرآن) في مبحث خلق الأفعال هو من خير ما يصلح لأن نختم به هذا الفصل . قال :

في القرآن الكريم والسنة النبوية نصوص كثيرة على أن الله تعالى خالق كل شيء ، وأن مرجع كل شيء إليه وحده ، وأن هداية الخلق وضلالهم بيده سبحانه هذه النصوص وأمثالها ، إذا نظر العبد إليها لا يسعه إلا أن يرد الأمور كلها إلى الله ، معتقداً أنه الواحد الأحد ، لا شريك له في ملكه ولا في ناحية من ملكه ، وهي أفعال التكليف من عباده .

ويظهر هذه الأدلة النقلية أدلة أخرى عقلية ، ناطقة بوحدانية الله في كل شيء ، وبأن العبد لا يعقل أن يكون خالقاً لما اختار من أفعاله ، لأنه لو كان خالقاً لها لكان عالماً بتفاصيلها ، لكنه يشمر من نفسه بأنه تصدر عنه أشياء كثيرة جداً من عمله الاختياري دون أن يعرف تفاصيلها ، كخطوات المشي وحركات المضغ في الأكل ونحوها ، وإذا فليس العبد هو الخالق لها .

بجانب هذا توجد نصوص كثيرة من الكتاب والسنة ، تنسب أعمال العباد إليهم ، وتعلن رضوان الله وحبه للمحسنين فيها ، كما تعلن غضبه وبغضه للمسيئين منهم ^٢ . وهذه نصوص إذا نظر العبد إليها ، لا يسعه إلا

ان يرد أعمال العباد الاختيارية إليهم ، معتقداً أنهم يستحقون ثوابها إن أحسنوا ، وعقابها إن أساءوا . ويظهر هذه الأدلة العقلية أدلة عقلية أيضاً شهادة بعدالة الله وحكمته ، لأن العبد لو لم يكن موجداً لما اختار من أعماله لما كان ثمة وجه لاستحقاقه المثوبة أو العقوبة ، وكيف يثاب أو يعاقب على ما ليس له ولم يصدر منه .

أهل السنة بهرتهم النصوص الأولى والأدلة العقلية التي بجانبها ، فرجحوها ، وقالوا : إن العبد لا يخلق أفعال نفسه الاختيارية ، إنما هي خلق الله وحده . وإذا قيل لهم : كيف يثاب المرم أو يعاقب على عمل لم يوجده هو ؟ وكيف يتفق هذا وما هو مقرر من عدالة الله وحكمته في تكليف خلقه ؟ قالوا : إن العباد — وإن لم يكونوا خالقين لأعمالهم — كاسبون لها . وهذا الكسب هو مناط التكليف ومدار الثواب والعقاب . وبه يتحقق عدل الله وحكمته فيما شرع للمكلفين .

أما المعتزلة فقد بهرتهم النصوص الثانية وما ظاهرها من برهان العقل ، فرجحوها وقالوا : إن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية ، ليس الله خالق كل شيء ، ومنها أعمال العباد ؟

هكذا نجد لكلا الطائفتين وجهة نظر قوية ، وتأويلاً سائغاً فيما تؤوله من النصوص المقابلة للنصوص التي بهرتها فرجحتها .